صفحات من

تأملات وجودية

بقلم الدكتور زكريا ابراهيم

٢٨ يوليه ...

موضوع تأملي اليوم هو « الاعجاب » ، فأنا اشعر بأن معنى « الاعجاب » قد انكشف لي للمرة الاولى في صباح هذا اليوم حينما استيقظت في الصباح المبكر لكي أستمتع باشراق الوجود . انه يخيل الي ان القدرة على « الاعجاب » و « التعجب » مظهر من مظاهر تفتح النفس وصفاء الذهن، بدليل ان الرجل العادي المستغرق في احداث الحياة لا يكاد يجد في نفسه القدرة على تذوق شيء او الاعجاب بشيء . فالاعجاب عندي هو الخروج عن الذات،من اجل الاستغراق فيما هو أعظم من الذات . ولكنني ادركت اليوم فقط ما في الاعجاب من معنى عميق ، اذ وجدت نفسي مغمورا بشعور غريب انتزعني من نفسي ومن افكاري الصغيرة ، ولم ألبث ان وجدتني غارقا في محيط هائل من الجلال والجمال ، كأنما قذف بي في اعماق الوجود الاعظم . وانه لشعور محرر ذلك الشعور الذي يستولي على النفس فيصرفها عن وجودها الضئيل ، لكي يجعلها تستغرق في ذلك « الكل » الشامل الذي تنزع اليه في قرارة ذاتها نزوعا باطنا دفينا .

نعم انني لا استطيع ان أحدد طبيعة « الكل » ، ولكن جهلي بطبيعته لا يحول دون الاعجاب به والشوق اليه . وانني لانظر فيما حولي فألمح اشعاعا الهيا في كل ما يوحي بالعظمة والجلال ، كأن الطبيعة نفسها تحاول ان ترفعني عن الارض وتعلو بي الى السماء . وهكذا اجدني مضطرا الى الاعتراف بأن في الاعجاب بالطبيعة ما يسمو بالنفس نحو آفاق عليا قد تكون هي الجو الروحي الوحيد الذي تستطيع الروح الانسانية ان تتنفس فيه . وليس اشقى من ذلك الرجل الذي لا يشعر بما في الوجود من جلال وجمال ، فيقف جامدا امام كل ما هو عظيم ، ولا يحس بأية لذة باطنة في ان يتذوق مجالي الطبيعة .

واما ذلك الذي يعرف كيف يفتح عينيه لكي يشاهد طلوع الفجر او شروق الشمس ، فانه لا بد ان يقف مبهوتا امام روعة الوجود حينما تنبثق الحياة في الصباح المبكر ، وعندئذ لا بد ان يسري في نفسه ذلك الاعجاب المقدس الذي هو اقرب ما يكون الى صلاة صامتة . والواقع ان الاستغراق في الطبيعة يعلو بالانسان فوق الاهواء الصغيرة والافكار الشريرة ، كأنما يطهر النفس من انفعالاتها المادية ، ويحررها من قيودها الارضية ، لكي يقربها الى الله نفسه .

... وفي صباح هذا اليوم همست في اذني طلائع الفجر فقالت : لا تنس ان النفس ايضا يجب ان تستعد للعمل بالصمت والسكون ، كما تستعد الارض لنهار العمل بسكون الفجر ! .. وامام تلك الخيوط الذهبية البديعة التي راحت عيناي تتملى جمالها ، وجدتني افكر في ذلك النور الالهي الذي هو اشعاع نفاذ ، واشراق لامتناه ، ليست منه تلك الاضواء المرئية الا بمثابة صور باهتة واضواء شاحبة !

٣٠ يوليه ...

من الافكار التي ترددت على خاطري اليوم فكرة « الوجود » فان هذه الفكرة لا تكاد تبرح مخيلتي منذ طالعت بالامس الصفحات الاولى من كتاب « س » . والواقع انني ما فكرت في « الوجود » يوما الا وشعرت بدوار عقلي عجيب ، كأن « الوجود » يند عن « التفكير » ، او كأن كل محاولة لتعقل الوجود لا بد ان تقذف بنا الى عالم « اللامعقول » . ولكنني مع ذلك اميل الى الاعتقاد بأن « الوجود » هو الحقيقة الكبرى التي تشمل في طياتها العقل ، والعاقل ، والمعقول ، بل واللامعقول ايضا ، بحيث ان كل محاولة لاثبات الوجود عن طريق الفكر لا بد ان تبوء بالفشل ، ما دام الفكر لا يمكن ان يكون مكافئا للوجود .

ولكن ما هو الوجود ؟ بل ماذا عسى ان يكون معنى قولي : « انا موجود » ؟ هنا قد يبدو مثل هذا التساؤل عبثا لا طائل تحته ؛ فان الوجود موجود (كما قال بعض الفلاسفة) وليس ثمة معنى للتساؤل عن ماهيته . بيد اننا حينما نضع الوجود موضع التساؤل ، فانما نحاول ان نفهم السر في استحالة العدم المطلق ، وامتناع اللاوجود التام . والحق ان الوجود ليس في حاجة الى اثبات ، ولكننا في حاجة الى ان نعرف لماذا كان « العدم المطلق » مستحيلا استحالة الدائرة المربعة . نعم لقد بين لنا كثير من الفلاسفة (من بينهم برجسون وبلوندل وغيرهما) تناقض فكرة العدم ، ولكن احدا لم يحاول ان يبين لنا استحالة وجود « حد مقابل » لكلمة الوجود . وفي رأينا ان هذه حقيقة هامة ينبغي العمل على اظهارها ؛ حتى نجنب الفكر المعاصر كثيرا من العثرات،فان كثيرا من المفكرين المعاصرين يتحدثون عن « الوجود والعدم » ، كأن كلمة « الوجود » لا تعبر الا عن مجرد نفي او سلب négation لكلمة « العدم » . ولكن الواقع ان « الوجود » لفظ ايجابي مطلق ، وهو ابعد ما يكون عن تلك المفهومات السلبية التي تعبر عن افكار ناقصة . فالوجود حقيقة مطلقة لا تقدم عليها اية فكرة اخرى ، كائنة ما كانت ، ولا سبيل الى فهمها على ضوء اي مفهوم سلبي كائنا ما كان . ولكن الفكر حينما يجعل من « الوجود » فكرة ، فانه سرعان ما يثير ذلك السؤال الميتافيزيقي الذي عبرنا عنه بقولنا انه تساؤل عن السر في استحالة العدم المطلق او اللاوجود التام . بيد ان هذه الاستحالة قد لا تكون في حاجة الى أفضل بيان ، خصوصا اذا حاول الانسان ان يسمو بنظره العقلي — في لمحة خاطفة — الى أفق ابعد من ذلك الافق المنطقي القاصر .

فهنالك سيرى المرء ان العدم فكرة لاحقة على الوجود ، او ان اللاوجود مفهوم قاصر خلقه العقل الانساني الذي يعمم فكرته عن « التناقض » على كل شيء ، حتى على «الوجود» نفسه . ولكن « الوجود » هو الحقيقة الوحيدة التي لا تقبل نظام الفكر وتسلسل المنطق ، فليس ثمة موضع للحديث عن « نقيض » بالقياس اليه . واذن فالوجود هو ما هو ، ولا سبيل الى وضعه في اية قضية منطقية تحتمل السلب او النفي . ولكننا نعود فنتساءل : ماذا عسى أن يكون معنى قولنا ان « الوجود هو ما هو » ؟

اول اغسطس ...

بالامس جال بخاطري ان كل ما استطيع ان أقرره بصدد الوجود انما هو قولي « انه هو ما هو » ، وقد عاودت اليوم التفكير في هذه العبارة ، فخيل الي بادىء ذي بدء انها لا تعني شيئا على الاطلاق ، ولكنني سرعان ما اهتديت الى مدلول هذه العبارة في لمحة خاطفة من لمحات البداهة للعقلية . والحق ان قولي ان الوجود هو ما هو انما يعني ان الوجود كل لا يند عنه شيء ولا يخرج منه شيء ، فهو ملاء لا موضع فيه لخلاء او نقص او تصدع . وبهذا المعنى يكون « الوجود » هو تلك الحقيقة الشاملة التي لا تقبل وصفا ولا تمييزا ، لانه لا سبيل الى الخروج عنها لوصفها وتمييزها .

٣ اغسطس ...

« انا موجود » : هذه العبارة الصغيرة كثيرا ما أرقت الفلاسفة والمفكرين ، ولكنها مع ذلك عبارة واضحة لا تحتمل لبسا ولا ابهاما . فأنا موجود لانني أشارك في هذا « الوجود » العام الذي يشمل كل شيء ، ويطوي في ثناياه كل ما هو موجود . وليس وجودي سوى شعوري بأنني جزء من ذلك « الكل » الذي أحيا وأتحرك وأوجد فيه . حقا انني قد أشك في وجودي او قد أرتاب في صحة مشاركتي لذلك « الكل » ، ولكن هذا الشك لا يرقى بحال الى صميم وجودي نفسه ، بدليل أنني أظل موجودا حتى في لحظات شكي وارتيابي . فالوجود لا يستخلص من الشك (او من الفكر) ، بل الشك مظهر من مظاهر الوجود ، والفكر عرض مصاحب للوجود . ولكن هل « أنا موجود » كما توجد هذه الشجرة او ذلك المقعد او تلك المائدة ؟ لا شك ان وجودي يتميز بأنه مقترن دائما بشعوري بأنني « موجود » ، ولكن هذا الشعور نفسه هو كل ما أعرفه عن معنى « الوجود » . فقولي ان المائدة موجودة او ان المقعد موجود هو في الحقيقة « تجاوز » قوامه اسقاط وجودي الخاص على الاشياء . ولكن من يدريني ، فربما كان الشعور حقيقة أعم من الفكر ، بحيث قد يكون لدى الاشياء ضرب من « الشعور » (او الاحساس الغامض المبهم) بوجودها ؟ وعندئذ فقد يكون « وجود » الاشياء هو نزوعها الضمني نحو مشاركة ذلك « الكل » الذي توجد فيه ، او اتجاهها الدفين نحو المساهمة في خلق تلك الصيرورة الكونية التي يتكون منها العالم . نعم ان مثل هذا الفرض يثير الكثير من المشاكل والاعتراضات ، ولكننا لا نجد مبررا لتقسيم الوجود منذ البداية الى « وجود في ذاته » en soi و « وجود لذاته » pour soi كما فعل سارتر (مثلا) . والادنى الى المعقول في نظرنا ان يكون « الوجود » معنى عاما يطوى في ثناياه كل شيء ، بحيث لا تعود ثمة « هوة » او « ثغرة » يحتض بها الانسان ، كأن ما هو مجرد « عدم » أو «تصدع» في صميم الوجود .

٤ اغسطس ...

حينما أحاول ان أفكر في « معنى » حياتي ، فانه يخيل الي ان الحياة ليست شيئا يتضمن « معنى » ، لانها ليست « موضوعا » يمكن ان أتعقله او ان أفكر فيه ، بل هي ذلك « الكل » الذي تنبعث ابتداء منه سائر المعاني ... فالحياة لا تفسر بغيرها ، وانما يفسر كل ما عداها ابتداء منها .

بيد ان المشكلة قد بدت لي أعقد من ذلك ، لانني في العادة أحيا دون ان افكر في معنى حياتي ، وحينما تثور في ذهني مشكلة « معنى » الحياة ، فان حياتي نفسها تكون قد اخذت تفقد معناها . وهناك أناس لا يفكرون قط في معنى حياتهم ، وهؤلاء عندي هم في الغالب ممن تحمل حياتهم معنى تلقائيا قد لا يرقى اليه الشك ، او ممن لا تقف في سبيل نشاطهم الحيوي اية عقبة فكرية . ولكنني لا أملك ان أحول بين فكري وبين اعاقة نشاطي الحيوي ، لانني كثيرا ما أشعر بضرورة التساؤل عن معنى حياتي . وفي هذه الحالة أراني مضطرا الى الشك في « قيمة » وجودي ، كأن « الفكر » حكم التجيء اليه للفصل في معنى حياتي او لاصدار الحكم على وجودي بصفة عامة . بيد ان ثمة هاتفا باطنا سرعان ما يهمس في أذني ان هذا الحكم نفسه ليس اهلا للفصل في هذه القضية الخطيرة التي قد تخرج عن دائرة اختصاصه ! وكأني لا أكاد أرقاح لحكم يصدره العقل على وجودي ، وهو ذلك الوجود الذي لولاه لما وجد العقل نفسه ...

فعلى اي نحو اذن يمكنني ان أضع مشكلة « معنى » الحياة ؟ او بعبارة اخرى : الى اية قوة ينبغي ان التجيء للفصل في هذه المشكلة ؟ .. ولكن من يدريني ان هناك حقا مشكلة ، فقد يكون عقلي هو الذي يبتدع المشكلة ، حيث ليس ثمة اشكال ؟ ان الكثيرين من حولي ليعيشون دون ان يؤرق أذهانهم مثل هذا الاشكال ، أفلا يكون التساؤل عن معنى الحياة عرضا مرضيا من أعراض ذلك الداء العقلي الذي ينتاب بعض الفلاسفة فيصرفهم عن التمتع بوجودهم والاستغراق في حياتهم ؟ ولكنني لا أفهم كيف يمكنني ان أحيا دون ان أفكر في هذه « الحياة »، فان فكري يلاحق كل شيء ، ولا يكاد ينفصل عن وجودي نفسه . فما السبيل اذن لتذوق وجودي دون الحكم عليه ، او للاستمتاع بحياتي دون التساؤل عن معناها ؟

الحق انه من العبث ان احاول الرجوع الى تلك الحالة البدائية التي فيها يحيا الانسان دون ان يسعى الى تعقل حياته او الحكم عليها ، فقد اصبح من المستحيل علي بعد ان تسلل فكري الى صميم حياتي ان أعود فأحاول ان أقذف به الى الخارج لكي أنصرف الى ممارسة نشاطي التلقائي دون تأمل او تردد او ارتياب . ومع ذلك فانني أجد لذة قصوى في ان أؤلب فكري على وجودي ، لان فكري كثيرا ما يخلع على وجودي من « المعاني » المعقولة ما يفوق في قيمته كل ما يجيء مع الحياة البدائية من « معان » تلقائية ! ولكنني أعود فأتساءل : كيف يمكن للفكر ان يخلع اي معنى على الوجود ؟

القاهرة **زكريا ابراهيم**